

## رسالة الأراضي المحتلة ١٩٦٧

### مشاهد من القدس العتيقة

القدس - من ربي الحصري

(١)

#### باب العامود

فرش الباعة المتنقلون بضاعتهم على الأدراج المؤدية إلى باب العامود. وكما في كل صباح، انضمت إليهم فلاحات يرتدين الأثواب المطرزة، آتيات من القرى المحيطة بالقدس وبيت لحم والخليل بأكياس من الزيتون والمرمية والنعناع وخضار وثمار علهن ينجحن في بيعها قبل الظهر، موعد توقف الحركة الاقتصادية اليومي. ومن أعلى الأدراج تختلط الألوان وتمتزج، من الزيتون الأخضر إلى الكعك بالسّمسم الذهبي إلى سجاد عجمي في زاوية وأحذية وملابس في زاوية أخرى. فجأة، يخرج من بين الجمع صوت ليعلن: "جاءت البلدية". يتراكم البائعون في كل اتجاه حاملين بضاعتهم في أكياس أو من دون أكياس ليختفوا بين الداخل والخارج من البلدة القديمة. وفي ثوان، تحولت الأرض المفروشة إلى أكوام من البضاعة في كل اتجاه. أحدهم لم ينتظر حتى ليقبض ثمن ما باع. ومن لم يقو على حمل بضاعته بسرعة ليخفيها في أزقة سوق باب خان الزيت، تركها في مكانها وحمل ما استطاع حمله. ترجل موظفو البلدية بلباسهم الكحلي من سيارتهم وسط حراسة الجنود، ونزلوا الأدراج بعد أن توقفت الحركة من حولهم. حملوا ما وجدوه: الكعك بالسّمسم على لوح من الخشب وفوقه السجاد العجمي، وبعثروا بأرجلهم الخضار المتروكة وداسوها.

وقف المارة مشدوهين وموظفو البلدية يلقون بما حملوه في سيارتهم. قال أحدهم: سيلقون به في المحرقة. العوض على أصحابه. إحدى الفلاحات التي كانت تبيع أوراق القرنبيط لم تتحرك من مكانها، ولم تأبه لما يدور حولها، قالت: يريدون أن يأخذوا أوراق القرنبيط، ليأخذوها، إلى متى سنستمر في الخوف؟ ومن الجهة الداخلية لباب العامود، على الأدراج المؤدية إلى تفرع طريق الواد وسوق خان الزيت، كان باعة البسطات - كما يسمون - قد سمعوا بالخبر، فحملوا بضاعتهم في صناديقها ووضعوها جانباً، ووقفوا ينتظرون انتهاء المشهد. وتحول المكان الذي كانوا يبسطون بضاعتهم فيه إلى خراب: صناديق وبقايا صناديق كانت تقوم مقام الطاومات، مقلوبة ومبعثرة في كل اتجاه.

"إنهم غير مصلين على النبي"، قال أحدهم وهو ينظر إليهم وهم يبحثون عن فريسة. غير أن صبيّاً في العاشرة كان يجر عربة عليها علب الكوكاكولا مغطاة بقطع الثلج، لم يبد عليه الاكتراث بمضايقات موظفي البلدية كبائعة القرنبيط؛ فعندما نصحه شاب أكبر منه سناً ألا يذهب في اتجاه باب العامود لأن موظفي البلدية سيسألونه عن رخصة البيع أجاب من دون انفعال: سيكونون قد ولّوا الآن. وسار في طريقه.

## (٢)

### أصحاب "البسطات"

قال صاحب "بسطة" أحذية، وقف مع زملائه على جانب الطريق بانتظار مغادرة موظفي البلدية ليعود ويفرش بضاعته: "كنت أعمل في مصنع أحذية في الخان الأحمر قرب مستعمرة معاليه أدوميم. وعندما قُتل الحاخام كهانا أوقفوني عن العمل. قالوا: متأسفين جداً لا نريد تشغيل عرب. كنا ستة أشخاص، ٤ من الخليل و٢ من القدس، نعمل في المصنع منذ سنوات ولكننا فُصلنا في ذات اليوم. ذهبنا بعدها إلى مكتب العمل الإسرائيلي حيث أننا من حملة هوية القدس، وعليهم أن يجدوا لنا عملاً. ولكن كلما أرسلونا إلى مكان قال أصحاب العمل لا نريد عرباً. ما الحل إذا؟ لم يبق سوى أن نبيع أحذية على البسطات، ولكن حتى بيع البسطة بحاجة إلى رخصة من البلدية، مثل بيع الدكان، والبلدية لا تعطي رخصاً. وها نحن كل صباح في العاشرة لنا

موعد معهم. يقومون بـ'كبسية' على البلدة القديمة. والمخالفة، إذا أمسك بنا، ١٥٠ شيكلاً (٧٥ دولاراً)، فأما أن تدفع أو تصادر البضاعة. وأصبحنا بلا عمل ولا 'بسطة'. فمن يطعم الأولاد؟"

وقال زميل له: "هل ترون البلاط الذي تسيرون عليه؟ بلاط القدس كله بلطته بيدي. عملت بلط ١٨ سنة في البلدية وفي النهاية قالوا الله معك، لا عمل لدينا. ومنذ سنتين وأنا بدون عمل. حتى أتعابي التي تحقق لي حسب القانون، أي ٦٠٪ من راتبي كمعاش تقاعد شهري، لم يعطوني إياها. أعطوني ٣ آلاف شيكل (١٥٠٠ دولار) فقط، وقالوا مع السلامة، لدي ٨ أولاد، وكلهم سواء في المدارس أو الجامعات. ولم أجد سوى بيع الحمام والزغاليل ليكملوا تعليمهم. وحتى هذا لا يسمحون به. وها نحن نلعب معهم لعبة القط والفأر كل يوم."

وقال ثالث: "نحن اثنين نبيع على بسطة واحدة أقراط ومزركشات وأدوات تجميل. وكل ما نجده طيلة النهار لم نبع سوى بخمسين شيكلاً. ما فائدة البيع إذا كنا سندفع ١٥٠ مخالفة للبلدية؟ ينغصون علينا حياتنا في كل شيء، ونحن صابرون. قبل عام ١٩٦٧ كنت أسكن في حارة الشرف التي حولها إلى حارة اليهود. طردونا من بيوتنا، ووضعونا في قرية أبو ديس. عملت في شركة إسرائيلية كمراقب بناء لمدة ٦ سنوات. وقبل ٧ أشهر أخرجوني من عملي وحل محلي ٤ من اليهود السوفيات. يسكنونهم في مستعمرة معاليه أدوميم (الخان الأحمر)، ويعفونهم من كل الضرائب. وأنا بقيت بدون عمل، وعليّ أن أدفع ضرائب للبلدية عن خدمات النفايات والمجاري وتعبيد الشوارع التي لا يُقدّم لنا أي منها. حتى حياة المخيم أصبحت أحسن من حياتنا. وفي النهاية، يتساءلون في إسرائيل: لماذا العنف الفلسطيني؟"

(٣)

### المستوطنون في طريق الواد

في أسفل البيت الذي استوطنه أريئيل شارون قبل ثلاثة أعوام تقريباً، والواقع في طريق الواد، تجلس مجموعة من جنود حرس الحدود لحراسته ليل نهار. ويمضي الجنود وقتهم بالاستهزاء بالمارة في النهار، وبالغناء بصوت مرتفع في الليل.

ولم يكونوا في ذلك الصباح يختلفون عنهم في أي صباح آخر، عندما شاهدوا شاباً يسير صوبهم في اتجاه باب العامود، فاستعدوا لاستقباله. وفي ثوان، وبحركات عسكرية مدربة أوقفوه، جاعلين وجهه قبالة الحائط، ويديه مرفوعتين، وساقيه متباعدين.. وبدأ التفتيش الجسدي الروتيني: مرّر الجندي رجله على ساقَي الشاب ثم فتش جيوبه وجيوب سترته وما تحتها ثم سأله عن بطاقة هويته. ولما كان الشاب لم يبلغ السادسة عشرة بعد، ولم يكن بالتالي قد حصل على بطاقة هوية، تركه يذهب إلى حاله بعد جدل قصير.

”نغد بريشه”، قالها صاحب دكان كان يقف إلى جانبهم. ”أحياناً لا يتركون الشاب يذهب دون أن يأخذ نصيبه من الضرب واللطم على وجهه، وبالطبع الشتائم البذيئة.”

وفي طريق الواد ذاته، على بعد ٣٠٠ متر من منزل شارون، وضعت لافتات وأعلام إسرائيلية على ثلاث بنايات، قال أحد سكان الحي إن إحداها استولى عليها المستوطنون منذ سنة ١٩٦٧، إذ اعتبروها ”أملاك غائبين”، واستولوا بعد ذلك بأعوام على البنائتين الأخرين، وحولوا البنائيات الثلاث إلى مدارس دينية وكنس. أما اللافتات المكتوبة بالعبرية فتشير كلها إلى أن المستوطنين يتبعون حركة عتيريت كوهانيم.

قال الشاب الذي يسكن في الحي، واصفاً المعيشة الصعبة: ”نعيش على بركان، والواحد منا يريد أن يقصف عمرهم لكثرة ما نراه منهم. في إحدى المرات مدّوا خيطاً يحمل أعلامهم من إحدى البنائيات حتى بيت شارون، فجاء الشبان وقطعوه في الليل. أما الشمعدان اليهودي الذي يعلو البناية فلم يستطع أحد حتى الآن إنزاله.”

وأمام دكان لبيع القمصان القطنية في الطريق ذاته، احتلت واجهة الدكان قمصان عليها صورة المسجد الأقصى وحوله شموع حمراء، كتب عليها: ”شهداء الأقصى شموع تضيء لنا الطريق، ٨ - ١٠ - ١٩٩٠.” وعلى قميص آخر كتب ”الإسلام هو الحل”. وبين القمصان الأخرى رسم على بعضها قبة الصخرة، ورسم على بعضها الآخر حمامتا سلام، وكتب على غيرها ”حبك يا فلسطين.”

قال البائع الشاب: ”كلما يرونها (القمصان) يشتعلون غضباً. وفي آخر مرة جعلوني أوقع على إقرار اني لن أبيعها ثانية وإلا، قالوا، سأسجن ١٤ عاماً. المستوطنون

هم أكثر الذين تستفزه هذه القمصان. ولأنهم لا يجروون على التحدث معنا يذهبون إلى الجنود الذين يأتون إلينا. لكن أشد ما أعاظهم هو قميص يحمل صورة صدام حسين كتب عليه 'لا إله إلا الله'. والآن لا أبيعها سوى في داخل الدكان".

وعلى بعد أمتار، وفي أعلى باب، وضعت لافتة كتب عليها "منزل شهيد الأقصى عز الدين الياسيني"، وفوق اللافتة رسمت نجمة داود بالدهان الأسود وكتابة بالعبرية تقول "المزيد من قتل العرب"، وكتب تحتها كلمة "كاخ". وقال صاحب المنزل إنهم كتبوا ذلك فوق اللافتة في يوم مقتل الحاخام كهانا.

#### (٤)

#### بائعة الأثواب والحلي

في دكان لبيع الأثواب المطرزة والحلي الفضية القديمة، جلست سيدة تدعى أم بشير، ترتدي الزي الغزي، تساوم صاحب الدكان كي تبيعه أثواباً مطرزة قديمة. وقد طلبت ٣٠٠ شيكل ثمناً للثوب الواحد، غير أنه عرض من جهته شراء ثوبين بـ ٣٥٠ شيكلاً. فانفعلت السيدة وهي تقول له: "إن ثوباً قديماً وذا تطريز جميل يباع بخمسائة دولار على الأقل". ثم قالت: "منذ ٢٦ عاماً وأنا أعمل مع تجار حارة النصارى. في عهد مصر كنا نأتي من قطاع غزة لنبيعهم الذهب المصري بثمن بخس، وبعد الاحتلال أصبحت أبيع الأثواب المطرزة والفضة اليدوية التي أجمعها من النقب ومناطق قطاع غزة، وأتي كل أسبوع لبيعها. ولكن الأوضاع أصبحت صعبة الآن، وأحياناً لا أستطيع أن أخرج بسبب حظر التجول، فأتي إلى القدس في الأسبوع التالي وأحياناً أعود بأثوابي إلى غزة وأكون قد خسرت أجرة الطريق".

ويصرّ لطفي صاحب الدكان بقوله: "لا نقود لدي الآن لأشترتهم. الحالة واقفة. لا سياح ولا ما يحزنون"، وأن التجار يستغلون الغزيات ويشتررون الأثواب القديمة "بتراب النقود"، ويبيعونها للسياح بالعملة الصعبة.

وتدخل أم خالد، زميلة أم بشير، لتقبض ثمن الحلي الفضية التي تركتها عند لطفي لبيعها، غير أنه يردّها خائبة. فالحلي ما زالت في الواجهة لم تبع، وتصر هي على القول إنه باع بعضها طالبة منه أجرة التوكسي لتعود إلى غزة.

وأم بشير وأم خالد هما اثنتان من ثماني بائعات أثواب معروفات لدى تجار حارة النصارى منذ عشرين عاماً على الأقل، وأصبحن يشكلن تراثاً في البلدة.

(٥)

### بائع التحف

في حارة النصارى أيضاً يملك السيد عطا الله محلاً كبيراً وأنيقاً لبيع التحف من خشب الزيتون والصدف، وأيقونات وسبحات وأحجار كريمة من الأراضي المقدسة. ومنذ إنشاء المحل حتى اليوم، أي منذ عهد الحكم الأردني حتى الانتفاضة، مرّت بالمحل فترات مختلفة يقسمها السيد عطا الله إلى فترة ما قبل الاحتلال الإسرائيلي، ثم فترة السبعينات والثمانينات، ثم أخيراً فترة الانتفاضة وأزمة الخليج. يقول عطا الله: "في عهد الأردن كان السياح يأتون إلينا من إسرائيل عبر بوابة مندلبوم. لم يكن اليهود يعرفون شيئاً في التحف التقليدية. واقتصر بيعهم على الماس. أما خشب الزيتون والصدف والمطرزات والنحاس، وكل ما له علاقة بالأراضي المقدسة، فكانوا يأتون إلينا لشراؤه، إضافة إلى أن سوق البلدة القديمة له نكهة كباقي أسواق بلاد الشام. وعندما كانوا يأتوننا من مصر كان هذا لا يعجبنا؛ ففي مصر ينفقون كل نقودهم ويشتررون ما هو أرخص.

"بعد عام ١٩٦٧ لم يعد لنا سياح سوى الإسرائيليين. كانوا يأتون بكثرة إلى البلدة القديمة، يكتشفونها ويبحثون عما كان وراء السور قبل ذلك التاريخ، الذي لم يسمح لهم باجتيازه سوى بعد أن احتلت المدرعات الجزء الشرقي. كانت البلدة القديمة في عزّها في السبعينات. ومع بداية الثمانينات أصبحت المهنة تنهار شيئاً فشيئاً. بعد أن كنا حوالي عشرة نبيع التحف التقليدية ومعروفين في السوق، بدأ أهل الخليل يملكون في البلدة القديمة، والكل يريد أن يبيع التحف، فذهب أصول البيع. ثم بعد أن أصبح الإسرائيليون أيضاً يتاجرون بالتحف تبنا سياسة لاحتكار السياح الأجانب وجذبهم إلى محلاتهم بدل البلدة القديمة. "مع بداية الانتفاضة انخفض البيع بنسبة ٥٠٪. أصبحنا نعمل ٤ أو ٥ ساعات يومياً فقط، إلا إن السياح يعلمون مواعيدنا، ويعلمون أن وقت الشراء هو الصباح فيأتون.

”ثم جاءت أزمة الخليج وأصبح مستوى البيع صفراً، فلا سياح أجنب ولا سياح إسرائيليين. والقليلون الذين يأتون يذهبون إلى بيت لحم، إذ يشعرون بأن المكان آمن أكثر، ووجود الجنود في القدس باستمرار يثير خشيتهم.“

## (٦)

### جداريات

على جدران البلدة القديمة وفي أزقتها شعارات كثيرة بدهان مختلف الألوان. بعضها طلي فوقه، وبعضها لا يزال، وبعضها لم يعد مقروءاً لكثرة الكتابات المتكررة فوقه. وكما البيوت ذات القباب والأقواس والأبواب المطرزة والحلي والأحجار وخشب الزيتون ورائحة البخور، أصبحت الشعارات تراثاً في البلدة القديمة من القدس، لكنه - على عكسها كلها - تراث سريع الزوال.

ففي طريق الواد نقراً على جدار: ”الويل للعملاء - فتح“، ”فتح تعاهدكم على مواصلة الانتفاضة“، ”مزيدياً من الطعن في القدس - فتح“.

وفي مكان آخر ”تحية لشهداء شعبنا في ذكرى الانطلاقة - ج ١١/١٢“، و”عاشت الذكرة ٢٣ للانطلاقة - ج ١١/١٢“. ونقرأ أيضاً: ”الج - نسور وبنديقية أسود في أقبية التحقيق الفاشية“. وعلى جدار آخر: ”اسمي فلسطين والمهنة فدائي“، ولا يوجد توقيع.

وتحتل حركة ”حماس“ معظم جداريات عقبة التكية:

- تحية إلى الشيخ أحمد ياسين
- حماس هي الأساس
- نعاهد الله على مواصلة الجهاد
- حماس تهنيء النصارى بعيد الميلاد المجيد
- تحية إلى عامر أبو سرحان بطل حماس
- ١٢/١٤، انطلاقة حماس
- حماس نجمة في سماء فلسطين
- جند حماس للأقصى حراس
- تحية إلى الوحدة بين حماس وفتح - القدس لنا - احذروا العملاء.

وعلى جدار آخر في العقبة ذاتها، كتبت كلمة رثاء لأحد الشهداء: "منزل الشهيد خالد يوسف الشاويش الذي لبى نداء ربه على أرض القدس.  
"كلمة صغيرة: إلى شهيدنا خالد

"لقد رحلت عنا بجسمك وكانت الفاجعة كبيرة على النفوس قوية على القلوب لولا إيماننا المطلب بأن الحياة أمانة أودعها الخالق سبحانه وتعالى في خلقه يطلبها متى شاء ومن أي يشاء وانقلب حزننا بحمده وتعالى فرحاً لأننا نعلم من عمق عقيدتنا بأن الشهادة أعلى وأشرف درجات الجنة فهنيئاً لك يا أخونا وحبیبنا بالشهادة. وأنتم السباقون ونحن اللاحقون إن شاء الله، ١٠/٤/١٩٨٩".

وحول كنيسة القيامة، وفي سوق خان الزيت، تنوعت الشعارات بتواقيع مختلفة:

- عيدنا يوم عودتنا - فتح.
- لنشعل الأرض ناراً تحت أقدام المحتلين - ق و م حشف.
- لا بديل عن الدولة الفلسطينية - ق و م.
- فتح تنظيمي والإسلام ديني.
- اليوم وغداً إضراب، التزموا - تحذير إلى التجار الغير ملتزمين.
- التزموا وإلا سنضرب بيد من حديد - لمش.
- حماس ثورة القرآن على الطغيان.
- تحية للفصائل الأربعة - فتح جـ حشف جـ د.
- المزيد من الزجاجات الحارقة والحجارة والطعن بالسكاكين - ق ض فتح.
- ليكن العام الرابع للانتفاضة مميّزاً بعمليات الكفاح المسلح وطعن المستوطنين - جـ لمش.

وانضمت إلى هذه الشعارات شعارات أخرى بالعبرية بتوقيع حركة "كاخ"، منها:

- كهانا سيحيا.
- الحاخام كهانا، سننتقم لك.
- اقتلوا الكلاب العرب. ■



مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: [majallat@palestine-studies.org](mailto:majallat@palestine-studies.org)  
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:  
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>